عبد الباقي يوسف



منشورات الطليعة
2011

شمس الحياة

عبد الباقي يوسف

تسطع شمس الحياة على أولئك الذين يبذرون البذور، وينتظرون شروقها كي تينع تلك البذور فيغتني بها الزارع، ويغتني بها الآخرون، وتغتني بها الحياة أيضاً.

كثيرون يمضون حياتهم دون أن يبذروا بذرة واحدة، ودون أن تسطع عليهم شمس الحياة، إنهم يعيشون في ظلام أبدي، لم تشرق على ظلمتهم أي شمس.

الحياة هـــي إحساس داخلـــي بالإشراق والطـــرب يعبق على النفوس جميعاً، بيد أن آلية الاستقبال لهـذا الإحساس يختلف من تركيبـــة إنسانية إلى غيرهـــا، وهذا يتداخل بمفهوم الحياة الغني لدى شرائح الناس.

مـــا يهم أن أي إنسان على سطح الأرض يمكن له أن يعيش دفء الحياة النفسية حتى لو كان في خيمة صغـــيرة في عمق صحراء، يمكن لـــه أن يستمتع بشـــروق الشمس على حياته كل صباح.

الشمس هنـــا تكون لمن يهيـــئ مشاعره لاستقبالهـــا، ويستمتـــع بلحظاتها الذهبية، وعندئـــذ يمكنه أن يشرق على الحياة ويقدم عملا مجديا فيها.

ليس بوسع الإنسان أن يفعل شيئاً مجدياً دون أن تشـــرق الشمـــس علـــى حياته، لأن الشمس هنـــا تحمل معها دفقـــات الحياة، ودفقـــات الحيوية التي هـــي بمثابة النبض لفؤاد الحياة.

قوة الحياة

كل إنسان يؤتـــى الحياة بقوة، لكن عليه أن يغتنـــم هذه القـــوة، ويسعى كي يفعل من خلالها شيئاً تكـــون بمقام قوة هذه الحياة، لأن الحياة تنطفئ في نفوس أولئك الضعفاء الذين يركنون إلى روح الوهن.

يمكن لأي شخص في العالم أن يهتف:

أنا الآن أمارس الحياة بكل لحظاتها، لا أترك لحظة واحدة تفوتني دون أن أعيشها، وهـــذا التخفّـــف من كافة القيـــود يمنحني الشعور الأعمق بالانطلاق في صحراء الحياة الشاسعـــة، والتحليق في فضاءاتها الرحيبة. أنـــا الآن حر بكل مـــا أملك من مدركات، يا للحرية إنها أثمن مـــن الماء والهواء ورغيف الخبز، أستطيع أن أعيش بالحرية وحدها، يا للحرية البهية، صباحاً سأفطر كسرة حرية ولن أجوع، الحرية تعلمني أكثر مما يعلمني القيد، أفهـــم في لحظات الحريـــة هذه أن الحرية لا تفتش عن أحد، إننا إذا أردنا ليس فقط نسعى إليها، بل نصنعها أيضاً، الحرية تبقـــى كالشمس قد تغرب لكنها ما تلبث أن تشرق على ظلام الإنسان بكل أشعتها.

عندمـــا أعجـــز عـــن ممارســـة الحرية الفعلية، يمكـــن أن أمارس الحرية الفكرية، والحرية الفكرية هي الإشارة الأولى لممارسة الحرية العملية.

عليك أن تجرب، التجربة الذاتية تعلّمك أكـــثر من قـــراءات العـــالم.. أليست كل هذه القراءات هي نتيجة تجارب مبدعيها.

حتـــى تستطيـــع أن تتحســـس الحريـــة وتتحدث عنهـــا بصواب،عليك أن تكون قد غرت في ظلماتهـــا، وسطعت عليك شمسها عندئذ بمقدورك الحديث عن ظلمة الحرية

وعن شمسها، بمقـدورك استيعابها بصورة أبهى.

ثمة أشياء كثيرة عليك أن تقوم بها.. كل شيء يتغير الإنسان يتلاءم مع التغيير ويخضع له.. حتى لا يبقى باهتـاً مملاً.يوجه هذا التغيـير حتى لا يكون ميتاً.. وأنت عشت كل لحظـة.. كل ساعة.. لم يفُتْـكَ يوم واحد لم تعشه.. كانت سنوات عمرك حافلة.

استمعـت إلى مجموعـة مذهلـة مـن الأغنيـات.. شاهـدت أحلامـاً ليس بوسع ذاكرتك حفظها.. قرأت.. استمعت إلى آلاف نشـرات الأنباء.. شاهـدت عشرات الآلاف من الوجوه.. تحدثت مع آلاف الأشخاص.. مشيت مئات الكيلو مترات على قدميك.. لم تمر السنوات هباءً.. كم مرة غسلت وجهك.. حلقـت ذقنـك.. ارتديت ثيابـك.. أكلت.. جعت.. شبعت.. ضحكت.. بكيت.. كم مرة.. ومرة.. ومرة.. أحسست بدفء العيش وأنت تصر على الحياة.. لا تدع ولا لحظة واحدة تهرب.. تتشبث بشعرها.. ولا تتركها إلاّ بعد أن تعتصرها.. ولا تتخلص الساعة منك إلا منهكـة جائعة، متقطعـة الأنفاس.. الوقت فيك يحـركك وتحركه.. هذا هـو الوقت، وهذا هو المكان.

وهاأنـت تكـبر ومـا أجمـل أن تكبر.. لكل سنـة تفكيرها ومشاعرهـا ومفهومك تجاهها.



كل سنة تأتي أنضج من غيرها.

انظر خلفـك.. سترى صفحات الماضي. تذكر بأن عليـك أن تولد مع ولادة كل يوم، مثلما تولد الدقيقة من موت الثانية.. وتولد الساعة من موت الدقيقة.. ويولد اليوم من مـوت الساعة.. وتولـد السنة الجديدة من موت /٨٧٦٠/ساعة.

غنى الحياة

ومـن الطرف الآخر يمكـن لشخص أن يقـول في ذاته: رأيـت الخلاص في تجريب ملذات الحياة والسفر والخطيئة.

رأيتـه في اتخاذ قرار العزلـة، رأيته في

القـراءة، في الكتابة في العمل، ولم أقدم على اتخاذ أي قـرار جدّي. خائف من أن تضيع حياتـي مني وأخسر كل شيء.. أحب الحياة وأتعلـق بها والآن،، لا شـيء يضحكني،، لا شيء يبكيني، وهذه الحالة تخلق لي هاجس التوتـر والاضطـراب. أعلم مـدى حاجتي الاستقـرار، وهل هذا بحاجـة إلى ثقة، إلى حديث طويـل مع الذات.. أعلم حاجتي إلى حياة هادئة متواضعة.

أخـرج صباحـاً إلى عملـي مـع آلاف العمال.. وأعود في الظهيرة إلى زوجتي.. إلى أطفالي.. آه لو علموا مدى حاجتي إلى تلك الراحة، أشعر بالضياع الحقيقي.. الضياع الذي ما بعده ضياع.

لكن أحاول أن أتّوه نفسي عن الحقيقة.. أقنعها بأنـنـي مرفّه، أعيشـ بحرية طليقاً كالطيـور، أتحايـل بـكل الأكاذيـب عليها لتنسجم مع كل المراحل التي لا تعجبني.

أقول: هــذه مرحلة لا بـد منها لتقبل أخرى جديـدة، وتأتي الأخـرى.. لا تحمل سوى اكتشافات جديدة في الآلام تُضاف إلى جملة آلامي التي أعانيها.. أقول مرة أخرى: وهذه مرحلة أيضاً لا بد منها لأكتشف علقم الحيـاة وحلوهـا.. لأمرّ بـكل التفاصيل.. ستأتـي المرحلـة العظمى بعد هـذه.. لكن لا توجـد مرحلة عظمى ويبدو بأنني أعيش فقـط وكل مرحلة تقذفنـي إلى أخرى، لن أبحث عن أحلام وأمنيـات ومفاجآت.. ما يهمني هـو أنني أعيشـ الآن لا أخطط لما سأفعلـه بعد لحظات سيكـون ذلك مباغتاً كالقدر.

لن أبحـث عن الحب الكبير الذي يحوّل مجرى حيـاة الإنسان، ويصنـع إنساناً آخر بدلاً عنـه. الحب الذي أضعـف أمامه إلى آخـر رعشة وبـذات اللحظة يمـلأ كياني بقـوة العـالم المذهلة.. أيضـا عندما تظهر المرأة الحقيقية الكبرى ستحمل معها الحب الحقيقـي الكبـير الذي يرتعش لـه القلب وتُـذرفُ له العينـان، إذ كل ما صادفت من نساء كن نساءً آنيات.. بنات اللحظة.. أشعر بواحدة ظهرت لتختفي.. لم تظهر المرأة التي تلبث مشرقة إلى المساء.. لتعاود الشروق في الصباح القادم

إلى متـى أسترسل في أحلامي.. الآن أنا هربت من الأحلام والتأمل والشرود.

لا جدوى من حياتك، إنه فراغ قاتل هذا الـذي يتلبس حواسك لا شيء أمامك عليك أن تكـون شجاعاً وتستسلـم للموت، الموت راحة أبدية رغم سوداويته مثل إبرة التخدير ترعب عندما تنغـرز في الجسد لكنها تريح الإنسان مـن الإحساس بالألم الأكبر الذي لا يمكن له أن يتحمله فيما بعد:

وداعاً أيها العالم وداعاً لكم وداعاً يا كتبي يا قيثارتي يا أشرطتي يا مسجلتي الكئيبة، وداعاً لقد انتهى كل شيء ماتت الحياة في إنها الخطوة الأخيرة من خطوات التردد واليأس.

لا شيء لي في الحياة أودعه لا أم لا أب لا صديق لا حبيبة لا شيء على الإطلاق، ما أجمل ميتة كهذه لن يبكي أحد عليَّ لم أعد أحتمل الحياة بلغ بي الجرح أقصاه. أترك الحياة وأرحل إلى نور الأبدية، كل شيء ضاع يا للخسارة الفادحة إنني الآن في أتعس لحظات الحياة، إنني مقبل على الهوة السحيقة من دون أسف على أيام الجوع الحرمان الضنك والأحلام التي لم تتحقق، مات الأمل في الروح ماتت الرعشة الأخيرة من رعشات الحياة، في هذه الغرفة المغلقة سأموت ولن يعرف بموتي أحد ستمر السنوات والبث في فرشتي وإذا ما صدف وحطموا بابي سينقلون ما بقي من بقاياي إلى مكان مظلم آخر وسيتحدثون للجميع عن عزلتي، عن رسالتي الأخيرة لابد أن هذه النهاية، إنها إشارة الله الأخيرة إلى روحي.

هذه الحياة التي جئتها عليك أن تتحمل كل شيء، هي سنوات قليلة ستقضيها وستموت، مت بهدوء من دون ضجيج، وبعد يومين فقط من موتك ستكون «نسياً منسياً».

ليس بوسعك إلا أن تتجنب الآخرين كي تعيش بهدوء وكي لا تضطر للكذب والنفاق والجشع وإغراءات الخارج. يمكن لك أن ترتكب أي خطيئة بحق شخص ما عندما تخرج، لكن هنا لن يحدث هذا. الآخرون دوماً يأتون ويجلبون الشر معهم هنا يمكن لك أن تعيش في عالمك وتفعل ما تشاء بين هذه الجدران المغلقة، المسألة تخصك فقط، إن أي خطيئة ترتكبها لا تضر أحداً ستكون شخصية تخصك وحدك، لو ألحقتَ الضرر بنفسك، أنت لوحدك ستدفع الثمن.

وعلى الرغم من هذا لا تسرف في الحماقات ليس بوسعك أن تحتفظ بشيء إلى الأبد اللحظات هي التي سترقص حولك وهي هاربة لن تتمكن من الاحتفاظ بلحظة واحدة لحظتين. ستدفع عمرك لحظة بلحظة في جميع الأحوال.

لا شيء لك في هذه الحياة كلها سوى عزلتك، حافظ عليها حتى لا تخسرها وإن خسرتها خسرت كل ما تملك ولن تملك شيئاً بعدها.

هاهو الصمت الجميل يحتفي بحضورك وعند ذاك عندما تستسلم إليه سيخلص لك ولن يدعهم يتحدثوا عنك بسوء، سيسهّل نسيانك عليهم وهذا أنبل شيء يقدمه إليك

هذا الصديق الوفي عندما لن يكون بمقدور أحد أن يقدم لك شيئاً.

ويخاطب نفسه: كن متّزناً.. بمقدور قرار واحد أن يجرّدك من جذورك.. أنت ارتكبت حماقات بحق نفسك لو علم بها أحد هؤلاء لتغيرت طريقة تعامل الناس معك.. لقد كنت على خطأ، ولكن على الرغم من ذلك النار لم تأكل كل شيء.. لم يرها أحد.. لقد بقيتْ مشتعلة في داخلك.. وقد تأتي يوم وتشعر فيه بالبراءة.. وأنك كنت ضحية.. ضحية الحرية المبكرة وهذه هي إحدى مساوئ الحرية التي تُمنح بغتة لشخص صغير مراهق دفعة واحدة، الحرية الكاملة التي مُنحتْ لك.

في أحايين ما.. يمكن للحرية أن تأخذ أكثر مما تعطي، أن تهدم أكثر مما تبني، يمكن لها أن تستعبد أكثر مما تحرر.. ورغم كل الخسارات الفادحة، فيجب أن تقتنع بأنك المستفيد.

ما أزال صغيراً.. المدينة تعلمني الكثير.. وأمامي نحو ثلاثة أرباع العمر الذي عشته.. أريد أن أمضي نصف العمر في المعرفة وبعد ذلك أستطيع أن أعيش دون مضايقات إن بقي في العمر، كل خوفي ينحصر على «سمعتي» لدرجة اتخاذ العزلة.. حتى أتعلم.. أنا خائف. قلق على اسمي.. ومستقبلي.. الحياة لم تعلمني ما فيه الكفاية.. ثلاثة أيام أختلط فيها بالناس بتواصل أدرك معنى الأخطاء التي ارتكبتها.. عندما أجرب العيش عشرة أيام متواصلة مع الآخرين من دون حماقات سأقترب من ثقتي بنفسي على نحو أفضل مما أنا عليه.

لم أكن أعلم أن لكل شيء مقابل مادي.. حتى شقاء الإنسان ودمه.. أجل أيها الإنسان في لحظات ما.. تتنازل عن قيمتك وتتحدر إلى الدرك الأسفل من القذارة.. يا أيها الإنسان الذي ينسيه المقابل بأنه إنسان.. الآن أكتشف أن الاقتصاد هو الشيء الوحيد الذي يتمكن من غدر الإنسان.. الاقتصاد هو الذي يتمكن من تجريد الإنسان من أسمى معنى..

لستُ بحاجة إليه.. لا يلزمني.. هذه هي الحقيقة.. ولا أرغب في وضعه في صناديق أو تحت الأرض.

أجل هذه الخرقة ستجردك من إنسانيتك.. ستنسيك طفولتك.

من يركض خلف الحياة ينسى طفولته.. ينسى اسمه.. ينسى الأرض تحت قدميه.. وأنت لا تريد أن تنسى.

الاقتصاد لا يحل إشكالات الإنسان الكبرى.. لا يحل غير حاجات النفس الصغرى الآنية التي لا تنتهي وتكون دوماً مكررة.. وفي

كثير من الظروف يخلق إشكالات اجتماعية مربكة..

اقرأ.. اقــرأ بوعي.. وتأمــل.. المعرفة تجلب السعــادة تجلب الحظ تجلب الحياة. أحمــق ذاك الذي يظــن أن صاحب العقل يشقى به وصاحب الجهــل ينعم بجهله، إنه مفهوم مظلم، الجهــل يجلب الفاقة والفقر أن تفكر لتخرج من الجهل خير من أن تبقى جاهلاً ويُصدأ عقلك هذا العقل الذي تعقد عليه معجزات المستقبل، والإشراق الروحي الذي لن ينبثق إلا من خلاله. أمراض العقل فضائل، وأمراض الجهل رذائل، أن يوجعك رأسك من التفكير خــير من أن يوجعك من عدم التفكير، هــذه عظمة الحياة تُريك كل شيء، كل شيء وأنــت تغتنمها، وتعتصر كل طاقــة فيها وفيك تجلــب اكتشاف جديد لم تكن تعلمه، أجل ســوف تدرك أشياء أخرى أكــثر أهمية، ســوف تدرك كــم أنك تشرق بخطواتــك وأنت تمشي تحــت شمس الله وبــين كل هؤلاء الناس، ستشرق روحك وهي تصغي لموسيقى الحياة.

قوة الشخصية

ثم يضيــف هذا الشخــص: في عزلتي أتجنب إشكالات الحيــاة وأكتشف أسرارها في وقت واحــد ولا أصدق أن أحداً يكتشف خفايا الحياة بقدري في عزلتي هذه. العزلة هي الحيــاة الحقيقية الثرية لســتُ أنا مَنْ يُعاني النقص، لستُ بحاجة إلى أحد لا يوجد ما يُسمى بالمجتمع المجتمع هو المجموع الذي مات مــن آلاف السنين أما أنــا ففرد لستُ معنياً بالمجتمع المجتمع هو المرض إننا أفراد ولسنــا مجموعة أفراد لا أقبــل أن أكون في دائرة المجتمع أنا سأضع المجتمع في دائرتي إننا نواصل العادات التي كان يقوم بها أولئك الموتى حتى لا ننسلخ عن جلودنا لكننا لسنا موتى أفهم شيئاً واحداً الآن هو أنني موجود ومسؤول عن وجودي عليَّ أن أكون بمفردي عندما يفرض الخارج عليَّ أوضاعاً تتناقض مع ميولي وطريقتي في الحياة، وأفهم أيضاً أن لبقــاء الفرد بمفــرده «قداسة» في حالة شديدة الخصوصيــة. محاولة للاقتراب من أخطر الأفكار المغروسة في المخيلة.. عندئذ فقط.. يشرق العقــل.. ينفتح كاملاً.. لأول مــرة.. عندما يكون «لوحــده» وأحترس من مداهمــة أي أحمق لهــذه الحالة الخاصة لمجرد لوي قبضة الباب أو رفسه. لأنني في تلــك اللحظات أكون على اتصــال مع أكثر المخلوقــات اللامرئية «لا مرئيــة». لا أكون كأولئك الذين يسعــون لإضاعة أعمارهم.. أولئــك الذيــن لا يدعــون فرصــة واحدة لإزعاج الآخرين للذهاب إلى البيوت وطرق الأبواب والنوافذ.. أولئك الحمقى.. الذين

يسلبوننا أعمارنا.. وحياتنا.. الضاجرون من أعمارهم وحياتهم. يعتقدون أن البشرية كلها مهيأة لاستقبالهم لحظة يشاؤون.. ويختارون الذين سيزورونهم.. ويقولون بأصوات عالية: غداً يوم عطلة.. سنذهب صباحاً إلى (س) وظهراً إلى (ج..) وعصراً إلى (ح..) ونتعشى في بيت (خ..) ونسهر في بيت (ش..) هكذا يخططون بعشوائية ويغتالون أوقات الآخرين.. بمجرد أنهم ألقوا بسلام لمرة واحدة عليهم. أو تعارفوا في شارع ما.. أو في حافلة النقل الداخلي.. إنهم يهدرون أوقاتهم وأوقات إخوانهم.. إنهم الفاشلون الحقيقيون. أما بالنسبة لي.. يمكنني البقاء هنا.. ورؤية كل أسرار حياة الإنسان.. من هنا أرى كل الخفايا من ثقب صغير في الذاكرة اللامتناهية.. ولا أشعر بذرة طمأنينة عندما أكون هنا.. ويكون الباب مفتوحاً.. ذاك الباب الذي يهيئ الاقتحام عليَّ.. وإفساد كل اكتشافاتي ولحظات قداستي الثرية التي اعتصرها من بقايا أيامي وساعاتي.. وتدر عليَّ بأثمن الكنوز.

السبيل إلى معرفة العالم يكون عبرك.. الهجرة الأثرى التي عليك القيام بها، هي الهجرة إلى ظلماتك بمركب العزلة.. عندما تتعرف بنفسك، تتعرف بالعالم.. تتعرف بالله.. لا تدع من يفسد رحلتك خلال عزلتك الداخلية.. وعندما تعود من رحلة العمر الثرية ستقدم للآخرين الحب.. ستقدم إليهم نفسك.. تهديهم كل ما لديك وكذلك سيكون بإمكانك أن تراهم أكثر مما هم يرون أنفسهم، تخبرهم أكثر مما هم يخبرون أنفسهم.

دوماً الحقيقة تحمل معها شيئاً من الفساد.. وحده الحلم يبقى نقياً.. وحده الأعمى يرى الأشياء الجميلة التي لا يمكن لك أن تراها بعينيك.. وعندما يقدموا لعينيه العلاج.. ستفسد تلك الأشياء الجميلة وتبهت الألوان.. وتجشع الأصوات وعندما يفتح عينيه لأول مرة سيرى الظلام الحقيقي الذي لم يره من قبل.. وعندئذ إما أن يعوّد عينيه على هذا الظلام ويوهمهما بأنه نور، أو يفقأهما في أقرب فرصة ليعود إلى نوره الأبدي.

مرة أخرى يحتلك البؤس وأي بؤس يقتلعك من جذورك لا يخنقك ولا يدعك تتنفس. هاهو الشقاء يعود على ما يبدو أنك ستدفع ثمن لحظات اللذة تلك..

أصبحتْ الحياة جحيماً لا يطاق.. فقدتُ القدرة على المقاومة.. أعاني حتى من قطرة ماء أجرعها.. من كسرة خبز تأخذ شكل أفعى أمام فمي.. من خطوة تبدو مرعبة وتهبط بي لأعماق بئر.. من لحظات

الاستلقاء.. وتكبر معاناتي لحظة بعد لحظة ولا شمعة أمل واحدة في عالم ظلمات يحيط بي.. أي مخلوق أنا لأحتمل كل هذا الجحيم.. ولأجل أي شيء احتمل.. إنه صراع مخيف.. مهلك.. لكن سأكون عنيفاً في مقاومته.. وكل ما أستطيع أن أفعله في عنفي هو قدرتي على مدى إقناع نفسي بالانسجام مع هذا الجحيم ومحاولة فعل شيء من خلاله.. هذه هي خطوتي الأولى للتخلص من وطأة ثقله على كل لحظات عمري.

- ما تزال تتعلم.. إنك بحاجة إلى أن تتعلم..

- لكن أخطائي لا تنتهي.. وهذا يؤلمني

- الأخطاء التي خفتها، بنتْ أركانك لبنة لبنة عندما لا تخطئ فإنك لن تصيب، ما يفيد أن تكون قادراً على تمييز الصواب من الخطأ.. والشر.. كل الشر أن تفقد نظرة التمييز.. أن يستولي الخطأ على مفهومك.

أنت لستَ مُطَالَباً من أي جهة كي تكون بلا خطيئة.. ولكنك تتعلم من تلك الخطيئة وتمدّ الخطوة نحو المعرفة.. كلما تخلّف خطيئة.. تتكشف أمام روحك خطيئة.. حتى إذا علمت أنك لن تبلغ آخر خطيئة ولن تبلغ آخر المعرفة.

- إن خوفي يتضاعف على المستقبل.

- الذي أتى بالإنسان، فإنه لا يتخلى عنه.. الإنسان استطاع أن يصنع أشياءً طيبة.. لقد أثبت بأنه يجيد الغناء وزرع الورود.. إنه مخلوق قادر على أن يحب أكثر مما يكره.. أن يسامح أكثر مما يعاقب. للإنسان صاحب، إنه ليس مخلوقاً ضاع من صاحبه في كوكب مجهول.

عندما تمتدّ يدٌ لتؤذي شخصاً فإنها لن تصل قبل أن تؤذي صاحبها أولاً.

عندما تمتدّ يدٌ لتعين شخصاً فإنها لن تصل قبل أن تعين صاحبها أولاً.

إن الإنسان أسمى من أن يُخاف على مستقبله، لكن عليك أن تروّض نفسك على تحمّل المصائب الكبرى.. أن تتوقع على الدوام ما لا يمكن له أن يقع.

ستبقى نفحات الحياة في العروق هي المدهشة سيكون بإمكانك أن ترفع نظرك إلى أعلى سماء سيكون بإمكانك أن تغوص بنظراتك إلى أسفل أرض سيكون الألم لبنة الحياة ستكون كل تلك الذكريات قوائم بيت بنيته بطين الروح. ستضحك لكل ما يهتز من حولك وفي ذروة انسجامك مع التفاصيل النابضة ستدرك أنك نضجت تمام النضج وسترقص بسرية في ظلمة لا تنتهي وعلى رغم كل ما سيكون ستبقى علاقتك بالحياة هي العلاقة الأكثر إثارة، الأكثر دهشة، الأكثر عمقاً.

بول إيلوار وأغنية الحياة

تحدث شاعر فرنسا الكبير بول إيلوار عن مفهومه للحياة، كما تحدث عن مفهومه للحب، وجعل الحرية مقترنة بالحب والحياة، لأن الإنسان من دون أن يشعر بالحرية الشخصية لايكون بوسعه أن يحب، ولا يكون بوسعه أن يعيش.

عندما يقرأ المرء هذا الشاعر الكبير، ويطلع على شيء من سيرة حياته، يتعلم منه بأن أعظم لحظات السعادة والمجد التي يمكن للإنسان أن يعيشها هي تلك اللحظات التي تتفتح فيها طاقات الحب لديه نحو إنسان آخر، ومن ثم مساحة الحرية التي يتمتع بها هذا الإنسان في التعبير عن ذاك الحب.

عندما نقرأ بول إيلوار فإننا لانملك إلا أن نتعلم منه، إنه مثل بوشكين، ولوركا، وآراغون، ورامبو.

هؤلاء الذين استطاعوا أن يفجروا طاقات الشاعرية العظمى في كوامن الإنسان واستطاعوا أن يُظهروا قوة الإمكانات الشاعرية لعذوبة اللغة التي تتحول إلى نبضات وحيوات، واستطاعوا أن يصوروا بأن الإنسان كائن محب أكثر منه كائن بغيض، وهو يستطيع أن يكتب عن الحب بقوة أكثر من كتابته عن البغض، ذلك لأنه يتمتع بطاقات هائلة من الحب تفوق طاقات الكراهية.

إيلوار أيضاً ينتمي إلى سلسلة الشعراء الذين لايضجر المرء قراءتهم.

إن أشعاره تشبه تلك السيمفونيات التي خلدت في الذاكرة، والتي يعود إليها المرء بين حين وحين ليستمع إليها مجددا وكأنه يستمع إليها لأول مرة رغم أنها المرة الأكثر من ألف.

ومما لاشك فيه أن /غالا/ كانت خلف الكثير من قصائد الحب العذبة التي كتبها بول إيلوار. يقول إيلوار واصفا حبه العميق لـ غالا:

كل ما قلت ياغالا.. كان لتسمعيه

ثغري لم يستطع قط فراقك.

وكان دوما يردد بألم: لايوجد سوى إنسان واحد، غالا

النسخة رقم.. مطبوعة خصيصا للتي أحب

غالا التي تخفي عني حياتي وتريني كل الحب.

ولكن ما يهمنا، ومابقي من ذاك الحب الكبير هو تلك القصائد الخالدة التي تحولت في غالبيتها إلى أعذب الأغنيات يشدو بها كبار المطربين والمطربات في العالم.

في عام ١٩٢٣ يكتب إيلوار في /عاصمة

إنها منتصبة في أجفاني، وشعرها في شعري

لها شكل يدي، لها لون عيني، إنها تغرق في ظلي

كحجر من السماء

إنها دوما مفتوحة العينين ولاتدعني أنام

أحلامها في سطع النهار، تجعل الشموس تتبخر

تجعلني أضحك، أبكي وأضحك، أتكلم وما

عندي ما أقول.

ويبــدو أن غالا كانت كثيرة الفراق فكان يعتمد في أوقات غيابها على تصوير حالات الشوق ويجري معها حوارات فيأتي صديقه بيكاسو ليرسم صورته كما هي ويكتب إيلوار تحتهــا جملــة: إلى غالا.. ساعــات الفراغ الرهيبة التي يخلفها لي حبك.

ثم يحادث طيفها:

إذا أرهقها سؤالي باحت لي بالحقيقة، الحقيقة التي

كنت أعلّمها إياها

الحقيقة المحزنة الحلوة، إن الحب يشبه الجوع والظمأ

لكنه لايعرف الشبع أبدا.

لقــد استطاع إيلوار المولود في ١٤ كانون الأول مــن عام ١٨٩٥ أن يكون الممثل لحقبة رائعــة من التاريخ الشعري الفرنسي ويجعل الشعــر أكثر التصاقا بالــذوق العام، يجعل الناس يــترددون إلى المكتبــات حتى يقتنوا دواوينه الجديدة.

استطــاع أن يجعل الشعر كالخبز والماء والهــواء بالنسبة لكافة فئات المجتمع وليس لفئة الشباب فحسب. فيمكن أن ترى عجوزا في الريف الفرنسي يهدي ديوانا من دواوين إيلوار لزوجته بمناسبــة مرور خمسين سنة على زواجهما.

كان يرى: /أن الشعر يجب أن ينظم من قبل المجتمع لامن قبل شخص واحد/.

ويرى أن: /للقصائد دوما هوامش كبيرة بيضــاء، هوامش من صمــت حيث تحترق الذاكرة المتوهجة لتعيد خلق هياج لاماضي له/. فالشاعر/هو الذي يبــث الإلهام أكثر جدا مما هو الذي يتلقى الإلهام/.

ولعل من القصائد الشهيرة التي وقفت إلى جانــب قصائــد الحب هــي قصيدة / أيتها الحرية/ التي يصور فيها إيلوار نظرة الإنسان إلى الحرية بقوله:

على دفاتر تلمذتي، على مسند كتابتي

والشجر، على الرمل على الثلج، أكتب اسمك

على كل الصحائف التي قرأت، على كل

الصحائف البيضاء حجر دم ورق أو رماد أكتب

اسمك

إلى أن يكتب: على مقفز بابي، على الأشياء

الأليفة، على دفاتر النار المباركة اكتب اسمك

وبقدرة كلمة استأنف حياتي، إني خلقت

لأعرفك، لأسميك حرية.

في الساعة التاسعة صباح يوم الثلاثاء الثامن عشر من تشرين الثاني عام ١٩٥٢ مات بول إيلوار مخلفا للمكتبة العالمية تراثا من الدواوين الشعرية الخالدة في ذاكرة الشعر الإنساني المعاصر.

يا أعماق الضمير، سوف تسبرين يوما، العهد

جاء سيدرس

كل ماهو معنى العذاب، لن يكون هذا شجاعة،

ولاحتى تخليا

ولاكل مانستطيع فعله، سيتقصى في ذات

الإنسان أكثر جدا مما استقصى قبلا.

يكتب إيلوار في قصيدة أسماها : الموت – الحب – الحياة:

حسبتني أستطيع حطم العمق والمدى الهائل،

بحزني المجرد بلا اتصال بلا صدى

تمددت في سجني ذي الأبواب التي لم يجتزها

أحد، كميت عاقل عرف كيف يموت

تمددت على الأمواج اللا معقولة للسم المجترع

صبًا بالرماد، بدت لي الوحدة أحدَ من الدم

كنت أريد فك وحدة الحياة.

الناس خلقوا ليتفقوا، ليتحابوا ليتفاهموا،

لهم أبناء سيغدون الناس، لهم أولاد معدمون

سيبدعون الناس من جديد والطبيعة ووطنهم

وطن جميع الناس وطن كل الأزمان.

الصوت الأنثى للحياة

كما أن الرجال كتبوا عن الحرية، ووصفوها وفق مفاهيمهم الذكورية، فإن المرأة أيضاً كتبت عن الحرية من وجهة نظر نسوية، وكانت كتابتها غنية بخصائص المرأة وشفافيتها وعذوبتها، وهي المرأة التي تصف الأسطورة الهندية بأنها خلقت من خصائص غنية.

تروي هذه الأسطورة بأن الله في البدء خلق كل هذا العالم ومن ثم خلق الرجل، وبعد ذلك شاء أن يخلق كائنا بشريا غير الرجل، فأخذ من القمر مسامَرَته، ومن البحر عُمقَه، ومن الأمواج مدَّها وجزْرَها، ومن النجوم لمَعَانَها، ومن الشمس حرارتهَا، ومن الندى قطراتِه، ومن الريح تقلباتِها وثباتِها، ومن النبات ارتجافَه وارتعاشَه، ومن الورد لونه وعطرَه، ومن الأزهار تجمّلها، ومن الأوراق خِفَّها، ومن الأغصان تمايُلَها، ومن حفيف الأشجار حنينَها وأنينَها، ومن النسيم لطفَه ورقتَه، ومن العسل شهدَه، ومن العلقم مرارتَه، ومن الذهب بريقَه، ومن الماس قساوتَه، ومن الحية حكمتَها، ومن الحرباء تلونَها، ومن الغزال شرودَه، ومن المها عيونَها، ومن الأرنب خجَلها وحياءها، ومن النمر شراستَه، ومن الطاووس خُيَلاءَه وزَهوَه، ومن الثعلب مكرَه وروغانَه، ومن العقرب لدغتَه، ومن الببّغاء هذيانَها وكثرةَ كلامِها، ومن الزمان خيانَته وغدرَه.

بعد ذلك جمع كل هذه الخواص وسكبها في بوتقة وخلق منها كائنا بشريا مختلفا عن الرجل ومنحه اسم /المرأة/ ومن ثم قدمه للرجل.

وفي عالم الأدب تعتبر الروائية الفرنسية جورج ساند من أكثر روائيات فرنسا شهرة في العالم، وهي إلى جانب مكانتها الإبداعية المميزة تعد من أبرز الأصوات النسائية المنادية بحرية المرأة ورفع الوصاية الذكورية والقيود الاجتماعية عنها. ولعلّ وقائع حياتها الشخصية الثرية خير دليل على انسجام هذه الدعوات مع تلك الأفكار. تعود بنا ساند إلى ١٧٥ سنة ماضية من التاريخ الأدبي والثقافي والسياسي والاجتماعي الفرنسي. في اعتقادي أن تجربة الزواج الفاشلة الأولى التي واجهت هذه الفتاة الفتية كانت خلف اشتعال روح التمرد لدى ساند، فقد تزوجت مبكراً في الثامنة عشرة من عمرها من البارون دودوفان وأمضت معه ذروة سنوات انفتاحها على الحياة، بيد أن ذلك لم يدم وفشل هذا الزواج بعد أن أسفر عن طفل وطفلة. فرأت نفسها امرأة وحيدة ومطلقة، فهل تستسلم لهذا القدر وتمضي حياتها في الريف ككل النساء الريفيات المطلقات اللواتي فقدن كل علاقة لهن بالحياة بعد تجربة الفشل تلك، ولكنها لم تستسلم لمثل هذه المشاعر اليائسة فكان لها أن تركت المكان برمته وانطلقت إلى قلب العاصمة باريس، هناك بدأت تثار حولها الشائعات وهي تقوم بحركات ملفتة إلى تمردها على التقاليد الفرنسية. وبدأت /أرمندين أورودوبان/ تُعرف بـ جورج ساند في الوسط الأدبي بعد أن اختار لها الكاتب جول ساندو هذا اللقب.

يصف جان شالون هذه المرحلة بقوله: /لم تلبس الأديبة بنطالاً للتشبه بالرجال والتمرد على بنات جنسها كما يروّج البعض وإنما لأنها استجابت لنصائح والدتها ولأسباب اقتصادية ليس إلا.. فتبييض الملابس وتجفيفها بالنشاء يحتاج لميزانية كبيرة افتقدتها جورج ساند بعد طلاقها من زوجها التي لجأت لضغط نفقاتها مع ولديها، أما استخدامها التبغ وتدخين السجائر وهو أمر معيب بالنسبة لامرأة تعيش في مجتمع برجوازي لا تزال الإقطاعية فيه تدلو بدلوها فجاء بدافع التودد للشعراء الرومانسيين والاقتداء بهم وتقليد سلوكهم وتبني أحياناً مواقفهم/. لقد أتت من قلب الريف ومن تجربة رهبنة دامت سنوات، وهي المطلقة التي تخترق كل الأوساط من دون تحفظ وتبني علاقات عاطفية متعددة، وتكون كثيرة التردد إلى المسارح والملتقيات الثقافية.

تكتب عن باريس: /هناك في جو باريس وشكلها وصوتها لا أعرف أي تأثير خاص، لا يمكن إيجاده في أي مكان آخر... في باريس الحياة في كل مكان/. ولذلك بدأت تدافع عن جماليات المكان والبيئة في كتاباتها، فتكتب:

لو أهملنا الاهتمام بالشجرة وغرسها فإن الجفاف سيحمل كارثة للكرة الأرضية ألا وهي نهاية المعمورة بسبب الإنسان، لا تضحكوا يا سادة فالذين درسوا هذا الموضوع يعتصر قلوبهم الألم والحزن لما اقترفته أيديهم، ولا أحد يدري كيف اختفت مجتمعات بعينها إثر زحف الصحراء إلى الغابات ومن يعلم إذا كانت هناك مجتمعات سابقة استوطنت القمر المجاور لأرضنا، وقضت نحبها نتيجة وَهَن قوى الطبيعة المحيطة بها وذلك رغم القول الشائع أن هذا الكوكب القمر غير مأهول بالسكان/.

وهناك اكتشفت موهبة الكتابة لديها فمضت بها السنوات وتعمقت علاقتها مع الكتابة ورحلة العواطف فكانت لها علاقات زواج فاشلة مع مشاهير تلك الحقبة ومنهم: /الفريد دي موسيه/ و/شوبان/ و/ميشيل دوبور/ و/باجيللو/ و/بيير لورو/. وبنت علاقات مع مشاهير عصرها من أمثال: فلوبير، ودوماس الابن، وتورجنيف، وفكتور هوغو، وبلزاك. ولعل من الطريف أنها ولدى وفاة الشاعر الفرنسي الشهير الفريد دي موسيه، كتبت عنه رواية بعنوان /هي وهو/ تتحدث فيها عن تفاصيل علاقتهما الزوجية، وتلمح إلى شيء من الانحراف الجنسي لديه، فهو كان على وشك الانهيار النفسي ويعيش حالة من العبث وهي التي جعلته متوازنا بقوة عاطفتها وتجربتها الغنية في الحياة حيث أخذته من تلك الأجواء إلى إيطاليا، إلا أنه ولدى أول خطوة لتماثله للشفاء من أمراضه النفسية أحب غيرها. ولم ترق هذه الوقائع للكاتب /بول دي موسيه/ شقيق الشاعر فراح يرد عليها برواية تحت عنوان /هو وهي/ يصف فيها خيانتها لأخيه الذي أحبها وعندما تعرض للمرض في إيطاليا واستدعى طبيبا هو /باجيللو/ لمعالجته، راحت زوجته تتخلى عنه وتبني علاقة مع هذا الطبيب وتتزوجه تاركة زوجها يموت على فراش المرض.

ما يميز هذه الكاتبة أن كل تفاصيل وجزئيات حياتها انتشرت بسرعة الريح لأنها كانت تروي كل شيء يقع معها، فإضافة إلى أعمالها الروائية كتبت في نهاية حياتها بعض الاعترافات البالغة الحساسية في شبه سيرة ذاتية تحت عنوان /قصة حياتي/، وعموما فإن مثل هذه الوقائع باتت مصدراً أساسياً لتناول حياة الكاتبة وأدبها.

لقد عاشت أرمنديـن أورورودوبان، أو البارونة دوفان، أو جـورج ساند حياة ثرية وطويلـة /١٨٠٤- ١٨٧٦/ وبقيت مخلصة لعملها الأدبي فأنتجت ما يشبه مكتبة أدبية، ولعل مـن أبـرز رواياتها: أنديانـا ١٨٣٢، كونسويللو ١٨٤٢، مستنقع الشيطان ١٨٤٦، الساحـرة الصغـيرة ١٨٤٩ فالنتين، إضافة إلى حكايـات الجدة، وهـي قصص كتبتها لحفيديهـا أورو- وغابرئيـل. وهي أعمال ترجمـت إلى غالبيـة اللغات الحيـة ولها قيمتها الفكرية والإنسانية والتاريخية. ولعل هذا ما جعل من ساند مـا يشبه الأسطورة في التاريـخ الأدبي الفرنسي وقد تركت أثرا بالغـا في الكثير من الروائيـات الفرنسيات ولعل مـن أبرزهـن فرسواز ساغـان التي تأثرت بأدب ساند وبحياتها، بيد أن ساغان أفرطت بعض الشـيء في ممارسة الحرية، وكذلك ممن تأثرن بساند سيمون دي بوفوار وفرجينـا وولف وناتالي ساروت، وفي بلادنا نرى آثار هذه الكاتبـة على أدب وشخصية غـادة السمان، ونـوال السعداوي، وغيرهن حتـى بات طلاق الكاتبـات شبه ظاهرة في العالم بعد تجربة ساند.

يقول عنها فولتير: /جورج ساند الروائية التي تجسد المجد الفردي للأدب النسائي/. وفي وصف لدستويفسكي عنها يقول بأنها: / رمز للمرأة الفريدة في موهبتها/. أما ألفريد دي موسيه كتب ذات يـوم بأن ساند: /أكثر النساء أنوثة، لابل هي الأنوثة بعينها/.

مساحة الوهن

ثمـة مفاهيـم خاطئـة يمكن لهـا أن تنعكـس سلباً على حيـاة بعض الأشخاص، فيستسلمـون كل الاستسلام لنزعات العدم التـي تجتاحهم، هـذا العدم الـذي ينتشر على مساحة الحيـاة لديهم وتوهن مفاصل الحياة في رمـق هذه المساحات الحياتية في دواخلهم، وفي نوازعهم.

أتحدث بشيء مـن القص عن تفاصيل هذا النموذج من خلال الحكاية التالية:

عندمـا أعلنـت المحطة المحليـة نهاية برامجها، تجـاوزت ساعة البـلاد منتصف الليل بساعـة. لبثت أصغي للحـن النشيد الوطني متأملاً رفرفـة قماش العلم، وبغتة انتفض جسدي كله من استغراق في محراب هـذا الطقس إثر وقوع دقـات خافتة على بابي الخشبي في الغرفة المطلة على الشارع، تملكنـي شعور غريـب بالوجـل من خطر مباغت علـى وشك الوقـوع، أدركت المعنى الحقيقي لسخافة أن يعجز الإنسان عن رد فعل يدفع عن حياته خطراً يراه، أن يستسلم بصمت مرغماً. قفزت نبرات مضطربة من صوتي: مَنْ.. من؟!

توقف الدق. غدا السمع في ذروة استعداد لتلقي نبرة صوت من الكائن الذي فجر حالة الفزع في أعماقـي. وبدت كل ذرة في كياني تلـح على حاسة السمع لتأتـي بنبأ مطمئن إلى ثورة الهيجان التي ألهبت البدن والروح. لبثت حالة الانتظار قائمة ونظري مسمر في ممسك البـاب مترقباً وقوع شر عظيم. بعد دهر من الانتظـار عاد الدق الخافت وكأنه يصدر مـن أنامل طفل، رميت نبرات تسعى إلى ثقة الرجولة: من أنت؟!

امتزج الدق الخافت بصوت كسير لايكاد السمع يستقبله: أنا.. أنا..

دفعني السمـع إلى قبضة الباب لتمييز نبرات المجيب وخرجـت مني نبرات سائلة: من أنت؟

عـاد الصوت الكسير مردداً: أنا.. أنا ثم عقب بعد هنيهات: أنا رسول.. رسول.

بدا هذا الصوت كخـزان ماء بارد رش على جسدي: أ أنت رسول حقا.

- رسول... رسول.

أجل إنه رسول الذي تعرفته منذ سنتين في إحـدى الحدائـق العامة، كنـت جالساً أتناول قطعة مثلجـات، فسلم علي شخص وجلس يتحـدث في الأدب العالمـي، ويعدد الروايات التي قرأها.

قلت: حقاً أنا سعيد بمعرفتك.

لم يمكـث طويلاً فنهض يـردد عبارات اعتذاريـة لطيفة على قدومـه إلي من دون معرفة سابقـة، فكررت امتناني على بادرته وقد نهضت أمد إليـه كف الوداع على أمل لقاء قريب، عندئذ هز رأسه وقال: سأزورك في البيت قريباً إن لم يزعجك هذا.

هززت كفه بكفي: هل تعرف البيت؟

ابتعد ملوحاً بكف الوداع مرة أخرى وهو يردد: أعرفه جيداً يا صديقي.

ظننـت أن عشرة أيـام مضت على ذلك اللقـاء الخاطف حتـى رأيته يطـرق بابي بخجل ويتمتم: هاأنذا وفيت بوعدي وزرتك في البيـت، أرجـو أن يكون الوقـت مناسباً بالنسبة إليك.

أذكـر أن الوقـت كان بعـد عودتي من العمـل بدقائق معدودة، وكأنـه كان ينتظر دخـولي البيـت ليلحق بـي. ولم يكن الوقت مناسبـاً لأنه موعد تناول الغذاء والاستمتاع بقليل من شاي مـع نشرة أنباء بعد الظهيرة الرئيسيـة، ثم الغفوة على صوت المذيع وهو ينتقل إلى النشرة الاقتصادية التي لا تعنيني. جلست إلى مائدة الغذاء وأنا أدعوه لإشراكي في الوجبـة الشهية الجاهزة التي أحضرتها للتو من المطعم. قال: تغديت وجئت، وتقدم لا ليشاركني الطعام، بل ليشاركني الجلوس على مائـدة واحدة وبين لحظة وأخرى يمد

يده إلى قطعة صغيرة من صدر الدجاج ويتناولها كمن يتسلى بحبات بزر قبل النوم. منذ ذاك اليوم بدأت زياراته تتواصل إلي في أوقات وأماكن مختلفة، فأحياناً يأتي إلى البيت في صبيحة يوم عطلة رسمية، وأحياناً يأتي مساءً، وأراه مرات يأتي إلى مقر عملي يجلس ساعة، يشرب الشاي ويتحدث عن رواية جديدة قرأها، أو عن رأيه في انتخابات مجلس الشعب، عن نبأ يكون حديث الساعة، ويصادف أن نلتقي في شارع ما، أو بجانب واجهة مكتبة يتأمل عناوين صحف ومجلات، فنمشي في بعض الشوارع إلى أن أقضي حوائجي، فيحمل معي ما أشتري من سلع للبيت ويمكث حتى وقت متأخر من الليل.

كل حديث رسول يدور حول: السياسة، والدين والأدب حتى بدا لي أنه لا يجيد الحديث بجملة مفيدة عن غير ذلك. وأعمد في لحظات الملل من مثل هذا التوجه الدائم لمسار الحديث إلى تغييره لمسار حياته الشخصية، علاقاته مع الجنس الآخر، فيتهرب بطريقة غاية في الذكاء تجعلني أكف عن إلحاحي غير المباشر. وأظنه يعد ذلك مضيعة للوقت والصوت في أمور خاصة، بينما هو يسعى لنقاش في المواضيع الكبرى التي تعني المجتمع برمته. مددت يدي إلى المفتاح وصوتي يسبق فتح الباب: رسول.. رسول.. أما زلت واقفاً هناك، تعرف بأني أعيش وحيداً ولا أفتح لأحد بعد الواحدة ليلاً، قل شيئاً ليتأكد لي بأنك رسول.. هل يصلك صوتي.. أأنت الذي هناك.. أهو أنت الذي يقف وراء الباب؟

تناهى صوته خافتاً، ولكن كهدير وقع على مسمعي: افتح يا صديقي.. لن يكون هذا غيري.. أتسمع، هذا صديقك رسول، إن لم تكن مهيأً لاستقبالي في وقت مزعج كهذا سأعود.

أدرت المفتاح في القفل، وسحبت قبضة الباب بحمد الله إلى الخلف، ليفتح فم الغرفة ويبتلع رسول كما ابتلعني وينغلق بأقصى سرعة.

- آسف يا رسول، كنت قلقاً لأنك لم تزرني في وقت متأخر كهذا من قبل، وظننت أن أحداً يقلد صوتك. قعد بكبرياء مهزوم والانهاك مع سمات الهزيمة يصرخان في وجهه، يا له من مشهد مؤلم، هذا الكائن البشري دوماً كئيب، يستاء من المجتمع كله، لا أعرف ماذا يريد بالضبط، وهو ذاته لا يحدد هدفاً معيناً لنفسه. رفض الثروة الطائلة التي أصابها من ميراث والده ولم يستثمرها، رفض المجتمع عندما شرع له ذراعيه، رفض الدين وثقافته الدينية تؤهله لأن يكون فقيها بارزاً في المدينة، رفض

السياسة وثقافته السياسية تؤهله لأن يكون رجل سياسةٍ بـارزاً في الدولة، رفض العمل في المجـال الأدبـي وثقافته الأدبيـة تؤهله ليكون ناقداً مهماً.

أمـام الحيرة التـي تنتابني في شخصية هذا العزيـز، أسائل نفسي وأنـا أنظر إلى استغراقه في عمق السكون: هل رسول ينظر إلى شـيء، ولا يريد أن يفضـي لأحد عما ينويه؟!

إنه كائن شفيق محبوب من قبلي، أحياناً وهو يتحدث بعمق في موضوع جاد، ويستغرق في انفعـال حـاد يشوبه بعضـ انضباط، استمتع بحديثه الذي يرفع آلاماً عن كاهلي ويستبـد لها بنشوة غامرة، يـا له من كائن جبار -رغـم عذوبتـه ورقته- قـادر على التأثير في مستمعه فأثـب وأطبع على خده قبلة: أشكرك، يقاطع حديثـه، ثم يستأنف سياق الموضوع حتـى يشبعه أمثلة، ولا أظن أن أي أستاذ جامعي يمتلك ما يمتلكه رسول مـن قوة وحجـة وقدرة هائلة علـى التأثير والإقنـاع. لا أخفـي أن هـذا الرجل معلم كبـير، يعلمني خصالاً ومزايا طيبة، وهذا ما يدفعني لإظهـار كل مشاعر الاحتفاء به والإفادة مـن استنارة روحـه، رغم أن هذه الصداقة العميقة معـه تعرضني للنقد من بعضـ أصدقائي الذين لا يجـدون فيه إلا رجلاً متطفلاً على أموال وأوقات الآخرين، فيزعجهم في بيوتهم وفي أعمالهم بحضوره والعزف على أسطوانة اضطهاده ذاتها التي ملّـوا منها، فمن الأفضل لهـذا المتطفل أن يجـد لنفسـه عملاً ينتج مـن خلاله نتاجاً مادياً، يكون بمثابة هدية منه للمجتمع الذي يطعمـه ويكسوه ويكتب لـه ويدفئه ويكيفه ويطببـه ويسمعه الأغـاني والموسيقا ويقدم له المواصـلات، هذا المجتمـع الذي أنجبه وأرضعه وغسله يوماً يوماً، وشهراً شهراً، محا أميته. وبالتالي يأتي هذا المتطاول فيتطاول على أرباب نعمته فيقذعهم ويصمهم بالعار والجهل والتخلف.

ولكن نقاشه الجاد عن /عدالة قضيته/ كمـا يسميهـا ولا يبينها، يجعلنـي أدع ما أسمعـه من هؤلاء عـن سلبيته مهب الريح، فـأراه مثالاً للنقاء الروحـي في نفسه تنمو بزور نظرية كبرى لسوف تأتي أكلها يوماً ما، فأرجو في قرارة نفسي أن يتبنى أحد رعاية هذا الرجل حتى ينتهـي إلى ما يصبو إليه، فإن عزة نفسه لا تمكنه من السؤال حتى لو قضـى جوعاً، وكم من مرة يمضي مسافات طويلة تحت الشمسـ ولا يصعد سيارة نقل عامـة لأنه لا يمتلك أجـرة التنقل من حي إلى حـي، ويأبى السؤال وإظهار خواء جيبه، وكم مرة يُدعى إلى وليمة، لكنه يبدي شبعه

وهو في واقع الأمر أكثر الناس حاجة لتناول قطعة من لحم في وليمة، وليس هو، لكني ألمس هذا الواقع عندما أكون برفقته.

رسول وحيداً وكجندي بلا بندقية يواصل كفاحه وسط أناس من غير زمانه لا ينتمي إليهم، يمضي غير آبه بغمز ولمز ونظرات شفقة ترمقه من كل صوب، فهو أيضاً يبادلهم نظرات أكثر شفقة بهم وهو يرمق ديكوراتهم وسذاجة نفوسهم.

هكذا استطاع أن يصفي حساباته مع الجميع ويسخر من كل أفراد المجتمع، لا تعجبه نشرات الأخبار، خطب الجمعة، ديكورات القادمين من القرى، المراكز الثقافية، التلفاز، لذلك لا يقوم بعمل، لا ينتج شيئاً، ولا عجب أنه حتى الآن لم ير من تقبله زوجا. يعيش في غرفة ضمن بيت أسرته، لا يسمح لأحد أن يدخل غرفته لا من طرف الأسرة ولا من الأصدقاء ولم يسبق لي أن سمعت شخصاً قال: زرت رسول في بيته. وعندما أتحدث معه في هذا الأمر يقول: أهلي الذين لا يحترمونني، لا يحترمون أصدقائي أيضاً، لا أستطيع أن أقدم شيئاً لزائري. وإذا سئل أي شخص من أسرته أو من الحارة عن أحواله يقول دون تردد: رسول امتلأ بالعقد وغسلنا يدنا منه، وفي أحسن الأحوال يقول: رسول جن من كثرة قراءاته، لم يعد يستوعب ما قرأ ففقد صوابه، كان الله بعونه، أما هو فيقول عنهم: هؤلاء مجانين يعيشون في عصفورية، أرفض الانتماء لمجتمع ناقص كهذا، لكنني مجبر، أعلم بأن هناك خطأً حدث بولادتي في هذا المكان الذي أعيش فيه غربة كاملة ولا يربطني أهله بأي انتماء.

جلس رسول بكآبة العالم في إحدى زوايا الغرفة متمتماً: سأجلس هنا ساعة وأنصرف. يبدو هزيلاً أكثر من أي وقت مضى، يتحول إلى هيكل عظمي، يتحدث ويرتجف بقوة، شعره مهوش وعيناه تبرقان في جزع. قلت: من أين أتيت؟ وحدقت في وجهه الذي علاه اصفرار حاد

- من الشوارع.. أشعر بتعب قاتل. وبدأ رأسه يهتز بعصبية

- ارتح يا أخي... لا أحد هنا.. الغرفة واسعة. وفي هذه اللحظة العصيبة وأنا أحدق فيه بكل ما لدي من قوة نظر خطرت لي فكرة أن رسول ملغوم بأفكار هامة، لكنه لا يقولها لأسباب خفية عني.

- أشعر باختناق. قالها وهو يمد أصابعه إلى عروق حلقه: لا شيء يجدي.. أشعر بأناس يطوقونني طوال الوقت ويصوبون أسلحتهم إلي.

ليس ثمة أكثر من غمضة عين بينه وبين الموت، يبدو لي بأنه يموت الآن تذكرت أن أحد المسؤولين ذات مرة أجرى اتصالاً لتعيين رسول في إحدى الشركات، وبالفعل داوم في الشركة، ولكن ليس أكثر من ستة أيام، وترك الوظيفة قائلاً: يريدون إرضائي ببصلة حتى أتناولها وأموت، أنا أسمى من أن أنتظر أول الشهر لأتناول هذه البصلة. وقيل إن قائد المسؤول علق على حادثة تركه للوظيفة قائلا: يريد أن يأكل ويشرب وينام ويلبس ويركب سيارة ويسكن فيلا دون أن يبذل جهداً، وأن نعينه على تحقيق هذا التطفل، بل ونوفر له خدماً وهو عاطل عن العمل. لقد فقد صوابه منذ أن ترك جامعته في سنة التخرج.

لم يسبق لي أن رأيته على هذا الاضطراب، فكل ما فيه ساخن ومستنفر، يشتم، يلعن، يبكي بحرقة.

قلت: رسول القضية ليست قضيتك وحدك حدد لنفسك هدفاً وسر به.. ومرة أخرى تذكرت قول صديق له ولي: رسول رجل فاشل. إذا كانت لديه أفكار لماذا لا ينشرها.. هو ليس الوحيد الذي أفكاره بحاجة إلى بذل جهود فردية لتصل. وقال مرة ملمحاً إلى هذه الناحية بحضوره في بيتي: الشجاع هو الذي يبدع في عالم فارغ ويتصدى بأفكاره الرصاص.. ويفرض خلود أفكاره. العظماء غزوا العالم بالأفكار.. لم يتمكن أحد من غزو العالم بالسلاح.. الآن العالم مغزو بالأفكار كما كان منذ الإنسان الأول.. والكتاب الأول.. والكلمة الأولى. عندئذ أحس رسول بتوجيه الكلام إليه فقال بألم: آ.. يا ليتني أنجح في هذه المهمة رغم عدم قناعتي بها. هاهو رسول مرة أخرى يفتح هذا الجرح، ولا أعتقد أن أحداً في العالم يستقبله بمثل حفاوتي، وأعترف بأنه رجل نظيف ونزيه، وصادق.. يدرك عمق الحياة.. إنه أستاذ كبير وكم أرجوه أن يكتب.. فكل إشكالاته ستحل إذا كتب ونشر، ومهما كانت كتاباته فسيجد من ينشرها له، إنه يقرأ فقط، يقرأ قراءة سلبية، أعني ما أعنيه بأنه قارئ سلبي، مثلما هو مواطن سلبي، مثلما هو فرد سلبي، مثلما هو مثقف سلبي بين شريحة المثقفين الذين لا يصوبون إليه غير نظرات شفقة. شعره الأبيض يتوقف، يصعد الصفار إلى وجهه النوراني المضيء، هذا الوجه الذي هو علامة على نقائه الروحي. يكفيه تسكعه في الشوارع وإدانته للواقع بكل أشكاله وألوانه والنظر إلى الآخرين بعين الازدراء والشفقة. فجأة نهض من زاويته: سذجٌ.. سذجٌ.. يا للعار.

قالها ودنا من الباب.. أمسكت به: ابق

هنـــا .. أين ستذهـــب.. ارتح أنــت منهار.. اجلســ.. سنشــرب حتى الصبــاح وعندها نشرب قهوة ونخرج.

قال ببؤس: لقد مللت الشرب والشتائم.. يا للهول. قلت وأنا ما أزال أمسك به: لكنها لحظاتك المنعشـــة الوحيدة التي تكون رائقاً فيهـــا... عندما تكــثر من الشــرب ويفلت لسانك.

قـــال: صدقني لقد حدث ذلك كثيراً إلى درجـــة أنه بـــات مبعث قرف لكــثرة تكراره اللامجـــدي، أنا أبحث عن شيء آخر.. شيء غـــير موجود في هذا العالم الفارغ. ثم صوب إلي نظرة كبرياء وكأنه يصوبها لطفل رضيع: لقـــد شاهـــدت كل شيء ولكننـــي لم أجد ما أبحـــث عنه هنا، منذ خمســـين سنة وأنا في التفاصيل التي لم تـــزدني إلا قناعة بضرورة الخروج من هذا السجـــن الذي بات أصغر مـــن أن أستطيع تحمّل البقـــاء بين جدرانه الخانقـــة. عندما كنت في عمرك، كنت أقنع نفسي بأن هناك أشيـــاء جديدة سأكتشفها ولذلك علي الاحتمال حتى الإهانة في سبيل ذاك الاكتشـــاف، يبدو لي بأنني عشت حياة البشرية الفانية كلها، لقد جئت لألخص كل ذاك الفـــراغ وأعيشـــه وأكتشفه.. لن أخسر شيئاً إذا أشرقـــت الشمس غدا ولم أرها، كم من صباحات مضت ولم أرها، لن أتسكع مرة أخرى في شوارع هذه المدينة ولن أرى نظرات الشفقـــة التـــي تُصـــوّبُ إلي وكأنني متسول أتســـول الحياة. لسوف أســـير نحو جنازتي مسروراً .. لن أترك رسالة.. لن أترك وصية.. لا تخرج خلفي، لا تودعني، أرغب ألا يودعني أحـــد. وخرج بكآبـــة ويأس العـــالم.. أغلقت البـــاب واستلقيت على سريري.. صحوت في السابعة صباحاً وتذكرت ما حدث معي ليلة البارحة ظننتني كنت في حلم، هل كان رسول هنا؟ لا شيء يشير إلى وجوده ليلة البارحة. ارتديت ثيابي وخرجت إلى عملي في السابعة والنصـــف. في منتصف الطريق لفت نظري تجمع لموظفي وموظفات الدوائر الحكومية، وبعض الناس الذين يذهبـــون إلى أعمالهم حول ساحة الإعدام في المدينة، الساحة التي تشنق الحكومة فيها من تراه يستحق.. وقد سبق لي أن شاهدت أناساً معلقين من رقابهم وقد مالـــت رؤوسهم في هذه الساحة. دنوت من الحشد.. بـــدا الرعب يتطاير من وجوه الناس: من المشنوق؟.

سألت في ســـري.. وفجأة وقعت نظراتي علـــى «رسول» أجل.. رســـول.. وكأنه لم يكن معـــي قبل ساعات.. كان معلقاً من رقبته في ذات المـــكان الذي علق فيـــه الذين صدرت بحقهـــم هذه الأحكام وكنـــت أراهم صباحاً لـــدى ذهابـــي إلى العمـــل.. لم يكـــن بثياب

الإعـدام.. وبسهولة يميـز الناظر إليه بأنه هو الذي شنق نفسـه.. لم أسمع سوى عبارة واحدة محـيرة تتطاير على ألسنة الحضور: «لكن لماذا هنا؟!».

بعد قليـل وقفت سيـارات أنيقة.. نزل منها أشخاصـ.. ابتعد الجمـع إثر تدخل أشخاص بقبعات.. ودنوا من «المعلق».

اقتربوا منه.. أشاروا بأصابعهم، تم أخذ صور سريعة له. وبعد دقائق تقدم شخصان من ذوي القبعات.. فكا الحبل، وحملاه إلى سيارة.. تفـرق الجمع في كل اتجاه والوجوه تحمل السؤال المحـير ذاته: «ولكن لماذا هنا بالضبط».

فضيلة الالتزام

هنـاك ضوابط نراها حتـى لدى أفتك الحيوانات المتوحشـة، فهذا الحيوان البالغ الشراسـة لا يتخلـى عن واجبـه في إطعام مولوده، ثم أنه لا يقدم على افتراس مولوده. وحتى الحيوانات الواهنة فإنها تقوم بتأمين عشـ آمن لها تغفو فيه حرصا على حياتها، ونرى أشـكال الانضباط في حيـاة النبات والمياه، والـتراب، فأنت عندما تقوم بتلويث ميـاه في حفـرة، أو في إناء، فـإن هذا الماء يقوم بمحاولة التخلص من التلوث، ولا يهدأ قبـل أن يعود نقيا، ومهما أردت أن تغيّر من ألوان الأشجار، أو تقطـع من أغصانها، أو حتى تبترها من الجـذع، فإنها تعود إلى ما كانت عليه.

كل شيء يعود إلى طبيعة فطرته.

وهنـا يمكـن تأويل مفهـوم الحرية في ممارسـة الحياة، إذ إنهـا لا تكون دوما في الإباحـة المطلقة، بل قد تكمـن روحها في الالتزام والضبط، فالماء يختار أن يكون حرا في عودتـه إلى النقاء، والشجـرة تختار أن تكون حـرة في مداواة جروحها، والعودة من جديد بصورة بهية، والإنسان يختار أن يكون حرا وهو يتقيد بالنواميس.

فأنت تكـون حرا قدر حفاظك أن يكون الآخرون أحـرارا، وإن وهبت نفسك حرية أن تقمعهم في معتقداتهم، عليك أن تمنحهم ذات الحريـة حتـى تكـون لهم حريـة أن يقمعوك في مذهبك.

ممارسة الحرية في دائرة الشخص ذاته الـذي يمارس إيقاعات هـذه الحرية، وهو يتمتـع بحرية أن يفعل مـا يشاء في دائرته، وفي اللحظـة التي يتولى فيها هذا الشخص نـداءات عامة لتعميم هـذه الطقوس، فإنه يخـرج عن حريتـه، ويسطو علـى حريات الآخرين.

إذاً أي محاولـة للسعي سـواء إلى ذوبان الشرق في الغرب، أو ذوبان الغرب في الشرق هي بذات الاتجاه محاولة لإلغاء هذه المزايا،

والخصائص، والجماليات من كوكب الأرض، وهي خسارة فادحة لأبناء الشرق، وأبناء الغرب معا إضافة على أنها خسارة لكوكب الأرض ذاتها لأنها ستكون فقيرة ومقتصرة على اتجاه واحد في نمط العيش. ولذلك فحتى روح الطبيعة مشتركة مع فطرية الإنسان ترفض أي مسعى للمضيء في هذا الاتجاه مهما بلغ ذاك المسعى من قوة ومن جبروت لأن أي إنسان ومن أي بقعة كان فإنه في النهاية لايملك إلا أن يعود إلى أصله لأنه ببساطة لايملك أن يغير خصائص ومزايا وجماليات، وحتى مورثات ذاك الأصل الذي تشكل منه وهنا على وهن وكذلك قوة على قوة.

إنها المرحلة التي يمكن اعتبارها نقطة التحول الكبرى، أعني اعتبارا من النصف الثاني للقرن العشرين، مع بدايات تسرب ثورة التقنيات الكبرى إلى بقاع الشرق إلى أن أخذت شكلها المعروف بالنظام العالمي الجديد، وأخذ هذا النظام يتفاعل تدريجيا -شئنا أم أبينا- في مختلف أنحاء العالم، بيد أنه أخذ يتفاعل بصورته الأكثر سلبية في بعض بقاعنا، فغدا البعض يرضخ لهيمنته بصورة غاية في الوهن إلى درجة أنه تخلى وتجرد من أي خصوصية تربطه بواقعه وأصوله وتركيبته الاجتماعية، بعكس غالبية المجتمعات الأخرى مثل المجتمعات اليابانية التي لم تتزحزح التقاليد اليابانية في ذواتها رغم ترحيبها بنداء العولمة الجديد، بل سعت لأن تكون مؤثرة وفعّالة وكذلك مضيفة بصمة لها فيه، وهنا باعتقادي يتبلور النظام العالمي ويستمد شرعيته العولمية، لكن هل هي مشكلة هذا النظام، أم هي مشكلة أبناء بعض المجتمعات التي لاترغب في أن تساهم فيه، بل تنجرف في تياره حيثما مضى.

نحن نتحدث عن تركيبات ومعتقدات وتقاليد مجتمعات الكرة الأرضية ولسنا بصدد التأييد أو الإدانة لهذا المجتمع أو ذاك، فالأمر مختلف كل الاختلاف بالنسبة للمجتمعات التي تعيش غرب الكرة الأرضية.

وهذا أيضا لا يعني القطيعة بأي حال من الأحوال قدر مايعني اللقاء والمودة والصداقات الحميمة العميقة وتبادل الخبرات بين مجتمعات الشرق ومجتمعات الغرب. فكما أنه ليس بالإمكان أن تشرق الشمس من الشرق وتغرب في الشرق أيضا، وليس بالإمكان أن تشرق الشمس من الغرب وتغرب في الغرب أيضا، فليس بالإمكان إلغاء ثنائية الغرب والشرق، أو محاولة توحدهما واحدة على إلغاء الأخرى.

و لذلك ترى أن مفهوم الحرية في بلادنا

مختلف عن مفهوم الحرية في بلاد الغرب فنحن ما نزال نعيش هول صدمة الانفتاح العولمي الذي فُرض علينا شئنا أم أبينا، وأظن أن ذلك كان قد حدث عندما صدمنا بالانفتاح المدني مع ولادة المدينة الغربية بكل تشعباتها.

الآن تجاوز العالم مدنية المدينة وأصبح المدني متخلفا بالنسبة للعولمي. حتى أولئك الذين يرفضون عولمة الكرة الأرضية وشعوب الأرض، فإنهم لا يملكون إلا أن يكونوا جزءا من هذه العولمة، ولا يملكون إلا أن يمارسوها حتى وهم في ذروة رفضهم لثقافة العولمة سواء كان هؤلاء من أبناء الشرق أو من أبناء الغرب.

إذاً نحن وأمام هذه النقطة ما نزال نسعى لأن نكون مدنيين رغم أن غالبية مجتمعاتنا تعيش في المدن، بل حتى بعض العواصم العربية والإسلامية الكبرى هي ليست أكثر من قرى كبيرة بكل ما تحمل القروية من مفاهيم وعادات وتقاليد.

إننا ما نزال نعاني هول الصدمة، فنحن قبل أن نتحول إلى مدنيين ونشبع مدنية المدينة رأينا أنفسنا أمام أن نكون عالميين، أو نعيش في عزلة وقطيعة عن المجتمعات الأخرى، وهذه الصدمة بذاتها تولد حالات متناقضة بين فئات مجتمعاتنا.

هذه مسألة تكلفنا كثيرا وندفع ضريبتها بصور مرعبة دون أن نلتفت إليها، القرية هي عالم صغير مغلق على أقرباء، في مناطقها يعتمد السكان على الأغلب على تربية المواشي والدواجن وفلاحة الأرض، في حين تكون المدينة مناقضة لنمط تلك الحياة، فهي ممتلئة بالأديان والأعراق والقوميات واللغات.

إضافة إلى تعدد مصادر الرزق التي تفرض على الناس التسامح والتساهل والليونة في سبيل التواصل،لأن الناس هم الذين يحملون أرزاق بعضهم البعض، وقدر ما يتمتع المدني بروح التساهل والليونة والبسمة واللطف، قدر ما يكسب في رزقه. فتراه شيئا فشيئا ينفتح على شرائح الناس المختلفة بسبب طبيعة المدنية وكذلك يكون في أسرته وأصدقائه وسائر علاقاته الاجتماعية والأسرية.

يحتاج الإنسان إلى الالتزام، كي تستوي حياته ولو وفق مستويات معينة، لأن الالتزام هنا يكون كالملح للحياة ينقذها من أن تكون نيئة لاطعم فيها.

كلمة الختام

الحياة تقترن هنا بوجود مَن نحب، وإذا خلت الحياة من الحب، خلت من الدفء.

يقول المظفر الأعمى:

قبلته فتلظى جمر وجنته
وفاح من عارضيه العنبرُ العبقُ
وجال بينهما ماء ولاعجب
ولا ينطفي ذا ولا ذا منه يحترقُ

ويقول الشيخ عزّ الدين الموصلي:

كالزرد المنظوم أصداغُهُ
وخده كالورد لما ورد
بالغت في اللثم وقبلته
في الخد تقبيلاً يفك الزرد

ويقول ابن صابر:

قبلت وجنته فألفت جيده
خجلاً وماسَ بغطفه المياس
فانهلَّ من خديه فوق عذارهِ
عرقٌ يحاكي الطلَّ فوق الآس
فكأنني استقطرت ورد خدودهِ
بتصاعد الزفرات من أنفاسي

ويقول شاعر:

قبلتُ رجل حبيبي
فازورَّ واحمر خداً
وقال تلثم رجلي
لقد تنازلتَ جداً
فقلت ماجئتُ بدعاً
ولا تجاوزتُ حداً
رجلٌ سعت بك نحوي
حقوقها لاتؤدى

يقول محيي الدين بن عربي:

اعلم أن الحب معقول المعنى وإن كان لا يحد فهو مدرك بالذوق غير مجهول ولكنه عزيز التصور فإن الأمور المعلومات على قسمين منها ما يحد ومنها ما لا يحد والمحبة عند العلماء بها المتكلمين فيها من الأمور التي لا تحد فيعرفها من قامت به ومن كانت صفته ولا يعرف ما هي ولا ينكر وجودها ولهذا قلنا:

الحب ذوق ولا تدرى حقيقته
أليس ذا عجب والله.. والله

واختلف الناس في حد الحب، فما رأيت أحدا حده بالحد الذاتي بل لا يتصور ذلك فما حده من حده إلا بنتائجه وآثاره ولوازمه ولا سيما وقد اتصف به العزيز وهو الله فلا حد للحب يعرف به ذاتيا ولكن يحد بالحدود الرسمية واللفظية فمن حد الحب ما عرفه ومن لم يذقه شرابا ما عرفه ومن قال رويت منه ما عرفه فالحب شرب بلا ري قال بعض المحجوبين ((شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً)) فقال أبو يزيد:

((الرجل من يحسو البحار ولسانه خارج على صدره من العطش)). وأحسن ما سمعت فيه ما حدثنا به غير واحد عن أبي العباس ابن العريف الصهناجي، قال سمعناه وقد سئل عن المحبة فقال ((الغيرة من صفات المحبة والغيرة تأبى الا الستر فلا تحد)).

الحب تعلق خاص من تعلقات الإرادة فلا تتعلق المحبة إلا بمعدوم غير موجود في حين التعلق يريد المحب وجود ذلك المحبوب أو وقوعه وإنما قلت أو وقوعه لأنها قد تتعلق بإعدام الموجود وإعدام الموجود في حال كون الموجود موجودا ليس بواقع فإذا عدم الموجود الذي تعلقت به المحبة فقد وقع ولا يقال وجد الإعدام فإنه جهل من قائله وقولنا

يريد وجود ذلك المحبوب وأن المحبوب على الحقيقة إنما هو معدوم فذلك أن المحبوب للمحب هو إرادة أوجبت الاتصال بهذا الشخص المعين كائنا من كان إن كان ممن من شأنه أن يعانق فيحب عناقه أو ينكح فيحب نكاحه أو يجالس فيحب مجالسته فما تعلق حبه إلا بمعدوم في الوقت من هذا الشخص فيتخيل أن حبه متعلق بالشخص وليس كذلك وهذا هو الذي يهيجه للقائه ورؤيته فلو كان يحب شخصه أو وجوده في عينه فلا فائدة لمتعلق الحب به فإن قلت إنا كنا نحب مجالسة شخص أو تقبيله أو عناقه أو تأنيسه أو حديثه ثم نرى تحصل ذلك والحب لا يزول مع وجود العناق والوصال فإذا متعلق الحب قد لا يكون معدوما قلنا أنت غالط إذا عانقت الشخص الذي تعلقت المحبة بعناقه أو مجالسته أو مؤانسته فإن متعلق حبك في تلك حال ما هو بالحاصل وإنما هو بدوام الحاصل واستمراره والدوام والاستمرار معدوم ما دخل في الوجود ولا تتناهى مدته فإذا ما تعلق الحب في حال الوصلة إلا بمعدوم وهو دوامها وما أحسن ما جاء في القرآن قوله: ((يحبهم ويحبونه)) بضمير الغائب والفعل المستقبل فما أضاف متعلق الحب إلا لغائب ومعدوم وكل غائب فهو معدوم، فالمحبوب أمر عدمي يتعلق المحب به أن يراه موجودا في عين موجودة، فإذا رآه انتقل حبه إلى دوام تلك الحال التي أحب وجودها من تلك العين الموجودة، فلا يزال المحبوب معدوما وما يشعر بذلك أكثر المحبين إلا أن يكونوا عارفين بالحقائق ومتعلقاتها فمن شأن المحبوب أن يكون معدوما ولا بد فيحب إيجاد ذلك المعدوم ولابد لا في معدوم هذا أمر محقق لا بد منه.

المراجع

١- زيغريد هونكه- شمس العرب تسطع على الغرب- دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط ٦.

٢- أسامة بن المنقذ- كتاب الاعتبار- تحقيق سامر السامرائي- دار الأصالة- الرياض ١٤٠٧ هـ.

٣- ديوان ابن عربي- دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٦- ص٣٦٣.

٤- ترجمان الأشواق- محيي الدين بن عربي- دار صادر- بيروت ١٩٦١- ص ٣٤.

٥- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ص٤٧- ٤٨،